



DONALD W. WINNICOTT

1896-1971

دونالد وود وينيكوت

د. محمود صبحي سعيد

متخصص بعلم النفس التربوي والعلاجي والصدمي

DONALD W. WINNICOTT

عمل د. وود وينيكوت كطبيب أطفال، وطبيب نفسي للأطفال، ومحلل نفسي، وهذا النشاطُ على جبهات عدّة ضمن له استقلالاً ملحوظاً في الفكرِ إثر تجربةٍ علاجيةٍ واضحةٍ وواسعة، ومكنه من فهم واستيعاب تعدد وجهات النظر حول الحياة النفسية للطفل والكبير، والتي دمجها المؤلف برؤيةٍ موحدة، وبهذا أوجد نقطة تحول حاسمة في أبحاث التحليل النفسي.

WINNICOTT

- في البداية، اعتنق D.W Winnicott فكرَ "ميلاني كلاين" عن علاقة الأم بالطفل، ثم بعد ذلك انحرف عن تلك المفاهيم وأصبح يتبنى تفكيرًا أقل تقليدية وانضمَّ إلى المجموعة المستقلة البريطانية (ما يسمى المجموعة الوسطى، المجموعة من الوسط middle group)؛ ليدخل التاريخَ كواحدٍ من رواد مدرسة "العلاقات بين الكائنات".

WINNICOTT

- مهنته كطبيب أطفال جذبه لمراقبة الأطفال وتفاعلهم لفترة طويلة مع والداتهم؛ مما سمح له بتفصيل نظرية أصيلة حول التطور النفسي والعاطفي للطفل. لقد رأى أنه لا يوجد طفل مستقل عن الوحدة التي تشكلت من قبل الزوجين الأم والطفل، ومنذ البداية عن التبادلات مع "البيئة الأم" وتفاعلها مع هبة الطفل الفطرية لتنظيم التعبير.

WINNICOTT

- صحيح أنّ وينيكوت أخذ "فكرة الكائن" من كلاين، لكنّه انتقد عدم إعطائها القيمة الصحيحة للخصائص الفعلية للكائنات الخارجية، وهي أصل خلق تلك الخصائص الداخلية، أي خصائص الوالدين، وعلى وجه الخصوص الأم وقدرتها على رعاية الطفل، وأخيرًا لتأثيرات هذه الخصائص والقدرة على الإنماء النفسي للطفل وعلى إنشاء كائناته الداخلية.

WINNICOTT

- بناء على الملاحظة الجيدة لعديد الأطفال الذين عالجهم كطبيب أطفال وكطبيب نفسي للأطفال، بنى وينيكوت نموذجًا بسيطًا ومرنًا ولكنه فعال ومؤثر، تركز على فكرة أنّ الطفل منذ الأيام الأولى في حياته حساس للغاية تجاه الرعاية التي يتلقاها أو لا يتلقاها، ويعتمد على ذلك اعتمادًا كاملًا في بناء "الأنا" وعالمه الداخلي.

MATURATIONAL PROCESS مراحل النضج

■ يمكننا تقسيم مسار نمو الطفل بالمراحل التالية:

■ 1. الاعتماد المطلق.

■ 2. الاعتماد النسبي.

■ 3. نحو الاستقلال.

■ إنَّ عملية التطور ليس لها إطارٌ زمنيٌّ صارمٌ، ومع ذلك يمكننا ربطُ الاعتمادِ المطلقِ بالفصلِ الأولِ من

الحياة، والاعتمادُ النسبيُّ من 6 أشهر إلى سنتين، بينما المسار المؤدي إلى الاستقلال يمتد إلى

المراهقة.

بناء "الأنا" والتعبير عن الذات

- كل مرحلة تطوّر تتطلّب مطابقة الموقف المناسب لمقدم الرعاية "caregiver" واحتياجات نمو الطفل، ومن هنا يجب التوافق بين خصائص التطور الداخلي والذاتي لكل مرحلة مع الإجابات من جانب مقدم الرعاية والبيئة التي تعيق التنمية، والغرض من العملية برمتها هو بناء "الأنا" والتعبير عن الذات.

إمكانات تطويرية وطابع وراثي

- يُولدُ الطفلُ مع هبة من الإمكانات التطورية، وطابع وراثي يشمل من بين أمور أخرى:
 - مجموعة الميول.
 - المواقف العفوية.
 - الاستعداد لبناء مخطط جسدي.
 - لتجربة الإحساس باستمرارية وجود المرء.
 - لبناء عالم داخلي خاص به منفصل عن العالم الخارجي.

الذات المركزية

- هذه الذات المركزية تسمى كذلك الذات المحتملة التي يُولد بها الطفل، وهي جوهر كل الإمكانيات التطورية المتعلقة بتطوير وظائف الجسم، والوحدة بين النفس والجسد، وتنمية الشخصية وسماتها، والمهارات العلائقية، والإبداع الفردي، والقدرة على التأثير بالسياق الثقافي الذي يحيا به الفرد.

الذات الحقيقية

- تتطور الذات الحقيقية داخل الفرد إذا تواصل مع العالم الخارجي وإذا سمح هذا الأخير، ويسهل بالتعبير التلقائي عن قدرات الذات الحقيقية. علاوة على ذلك، بما أن الذات الحقيقية تبقى في الداخل للفرد والتي تحرس بدورها جوهره الحيوي (النواة الحيوية)، يبني الفرد نفساً مزيفة أو ذاتاً زائفة، أي منظومة تُراضي المطالب البيئية، والتي تتولى مهمة حماية الذات الحقيقية وإخفائها وتميئتها، وتبقى حوله كصدفةٍ تحميه من إمكانية التدمير من خلال العلاقة مع البيئة.

"الأنا"

■ تتزامن "الأنا" مع تنظيم الواقع والحقيقة النفسية للفرد والتي تسمح له بالتفكير "أنا"، أي العيش كوحدة ذاتية، والتفكير في وجود المرء بشعور من الاستمرارية بمرور الوقت؛ ولذلك هي المركزُ التجريبيُّ للفرد، وهي الحالة التي تُكوّنُ تجربةَ الذاتِ والعالمِ المحيطِ بها.

الاعتماد المطلق ABSOLUTE DEPENDENCE

■ في هذه المرحلة، يُشكّل المولودُ الجديدُ (يسميه وينيكوت، infant من أصل الكلمة اللاتيني الذي يعني "بدون لغة") ورعاية الأمومة وحدةً واحدةً (كل واحد ووحيد)، فهما ينتميان معًا وبشكل متبادل وبالمثل subjective unit ، غير أنّ حياة الرضيع تعتمد كليًا على رعاية الأم.

■ هذا يعني، من ناحية أنّ الرضيع لا يعرف أنه يتلقى عناية، ولا يستطيع السيطرة على ما يحدث له، ومن ناحية أخرى أنّ الأم تتعاطف مع احتياجات طفلها الفيزيولوجية، وتتنبأ بها بطريقة سحرية تقريبًا بدون أي جهد للفهم؛ وذلك بفضل التماهي الكامل والتعاطف الشامل مع المولود الجديد.

الاعتماد المطلق ABSOLUTE DEPENDENCE

- وظيفة الأمومة الموصوفة من قبل " Winnicott " بـ " holding " هي الاحتفاظ (المحافظة على، الاحتواء، الدعم)؛ لذا يجب أن تكون قدرتها على الرعاية "جيدة بما فيه الكفاية - Good enough"، وقد تكونُ الأم مخطئة بسماع ما يحتاجه الطفل في وقت ما، لكن يكفي أن تدرك أنّها أخطأت ولا تصر على طريق الخطأ.
- إن العديد من حالات عدم الامتثال التي تليها معالجات تصححها وتتبعها تراكم لرسالات حب ووجود إنسان دائم فقط لرعاية الطفل هي الرعاية الصحيحة، (للأسف، الصياغة في هذه الفقرة غير واضحة بالنسبة لي ولم أستطع فهم المقصود من النص لإعادة صياغته بشكل أوضح).

القدرة على كل شيء OMNIPOTENCE

■ إن إقامة **The accommodation** وسكن الأم لتوفير احتياجات الطفل

هي فرصة له للحصول على تجربة حقيقية في "القدرة المطلقة - القدرة على

كل شيء" "a real experience of omnipotence"

■ لحظات الوهم **moment of illusion**

ALONENESS الوحدة

- القدرة على البقاء وحيداً خارجياً, يعتمد على القدرة أن لا يبقى وحيداً داخلياً لكي تبقى النفس (self) بقوه وتماسك بوجه الانفصال, فهو يركز على أهمية الداخل التي تدعم ال Ego وهذا يحدث عندما تعطي الأم العناية الكاملة فأنها تدعم وتقوي القدرة على البقاء وحيداً.

■ The ability to be alone

PRIMARY MATERNAL CONCERN

■ انشغال الأمهات الابتدائي (الانهماك الأولي عند الأم) الانشغال يؤدي إلى الاهتمام

■ Primary maternal preoccupation

■ يسمى وينيكوت هذا الاهتمام الأمومي الأساسي "primary maternal concern"

تماهي الأم مع الطفل والقدرة على التعاطف مع احتياجاته، إنها مشاركة لكل من الجسم

والنشاط الخيالي، ومعظمه لا واعي، والذي بدأ بالفعل في الحمل كحالة من الحساسية

المتزايدة، وكتماهي مع الإسقاط والذي يستمر لبضعة أسابيع بعد الولادة.

الأم كشيء والأم كبيئة

■ تسهيل البيئة Facilitating Environment

■ يفترض وينيكوت أنّ هناك نوعين من التجربة لدى الرضيع، الأم كشيء (أم كحاوية لكائنات جزئية من

غرائز الرضيع) وأم كبيئة (الأم المحسوسة التي تدعم، والتي تبعده عن الصدمات).

■ **impingement** تصادم . يحصل بحالة فشل الموائمة.

الاعتماد النسبي RELATIVE DEPENDENCE

■ يبدأ الطفل بإدراك تعلقه برعاية الأم التي يحتاجها، ويمكن أن يرسل إليها إشارات طلب للحصول على تلبية احتياجاته، بينما في مرحلة التعلق المطلق، إذا كانت الأم بعيدة لا يلاحظ الطفل ذلك، ولكنه يعاني من اللطمة التي تحميه منها الأم عندما تكون حاضرة.

■ أمّا في طور الاعتماد النسبي فإذا بقيت الأم بعيدة "لبعض الوقت أعلى من قدرة الطفل على الاستمرار في الإيمان ببقائه على قيد الحياة" عندها يشعر الطفل بالقلق، وهذا يشير إلى أنه يعرف عن استقلاله.

الاعتماد النسبي

- تتميز هذه المرحلة بظهور علاقة بين الطفل والأم "كما بين كل الناس كأشخاصٍ كاملةٍ، من خلال الاستخدام المتزايد للتبادلية والتواصل، ومن خلال حقيقة أنَّ الطفل يبدأ اللعب بالأشياء من خلال منحهم معنىً ينشأ في عالمه الداخلي. ويتخلى الطفل أولاً عن تخيُّلاته أنه كُليُّ القدرة، ويبدأ بالتعرف على نماذج أولية من ذات الآخر.

الاعتماد النسبي

- لتسهيل عمليات الاكتساب هذه، تبدأ الأم بإلغاء التكيف تدريجياً لاحتياجات الطفل، بمعنى عدم الإقامة، حيث تتخلف الأم عن السداد وتنتظر إشارة طلب من الطفل. إن قدرة الأم على إبطاء الموائمة تتزامن مع "شفائها" التدريجي من قلق الأمهات الأساسي؛ لذلك تتخلى عن تعاطفها على أن تزود الرضيع باحتياجات مسبقاً ولكنها تفهم اللحظات التي يكون فيها بحاجة للتعاطف، وتلك التي يجب أن يجرب فيها انفصلاً واستقلالاً تدريجياً.

مرحلة "الكائن الانتقالي" THE TRANSITIONAL OBJECT

- من المهم فهم وتحديد مرحلة "الكائن الانتقالي" **The transitional object** والتي تُميّز الحالة الانتقالية للتطور الانتقالي، بين بداية العلاقة مع الكائن واستخدامه، والقدرة على الترميز.
- ويمكن تمييز بداية ظهور الكائن الانتقالي عندما يبدأ الطفل بوضع إبهامه في فمه، وغالبًا يداعب وجهه بالأصابع الأخرى، وتبدأ اليد الأخرى بالضغط على شيء ما مثل قطعة من "الشرشف"، ويصدر أصواتًا متكررة استعدادًا للنوم.
- إنّ الكائن الانتقالي هو كائنٌ يستخدمهُ الطفلُ للدفاع عن الكرب ويلهو به وكأنّه خلقه، وهكذا يشكل جسرًا يضمنُ مقاربتَهُ للحقيقةِ المؤلمةِ وليست الصادمةِ للغاية، وهكذا يمكن للطفل اللجوء إليه كيلا يستسلم للكرب عندما تبتعد الأم، على سبيل المثال.

نحو الاستقلال

■ إذا كان الكائن الانتقالي كرعاية جيدة في المرحلة الأولى، واستجابة مناسبة لعدم التكيف في المرحلة الثانية، عندها يكتسب الطفل الثقة في البيئة، فيصبح هذا بمثابة تصورٍ إيجابي جوهري في العالم الخارجي ويحمل معنىً للحياة؛ كونه تراكمت لديه ذكريات رعاية الأمومة، وحتى ولو أصبح الطفل دائمًا أقل اعتمادًا "من أن يعيد امتلاك ذاته من رؤية وجه أمه" خاصة وأنه الآن يمتلك صورًا تتكاثر ويتماهاى معها باستمرار، ومع ذلك فإنه يستمر باكتساب القدرة على رؤية نفسه من خلال سلوكيات أفراد أسرته أو من خلال الأسرة ككل.

ثلاث عمليات أساسية تحدد "تطور الأنا"

- 1 - اندماج - Holding (حمل، حضن، احتواء) عملية تنظيم الواقع النفسي الفردي ووجوده وفقاً لصيغة "أنا"، وهي عملية تعتمد كلياً على Holding من الأم، من خلال قدرتها على أن تكون أم جيدة بما فيه الكفاية.
- إحتضان: هو وظيفة ذات أهمية أساسية في التطور النفسي. يجب أن تكون الأم قادرة على خلق نوع من البيئة، قبل كل شيء نفسية حيث يشعر الطفل بالترحيب والدعم والطمأنينة والتشجيع في التعبيرات الأولى عن نفسه.
- البيئة الحاضنة Holding environment
- (holding e handling) (الحياسة والتداول).

PERSONALIZATION - HANDLING - معالجة شخصية - معالجة

2. شخصية = اكتساب مخطط الجسم الخاص به وإنشاء النفس في هذا الجسم، ونتيجة لذلك يصبح الجلد كغشاء يفصل بين أنا وليس أنا، وبين من الداخل ومن الخارج.

يعتمد التخصيص أو الشخصية بأداء وظيفي جيد لـ Handling التي تمارسها الأم، من خلال قدرتها على التعامل بطريقة طبيعية، دون إحداث صدمات، ودون إحداث لشعور أن الجسم مكون من أجزاء لم يتم تنسيقها بعد (يتدلى الرأس والأطراف تتدلى) ولكن تجعله يدرك الجسد كوحدة، بحيث يشعر به الطفل كجزء من ذاته وكحاوية لذاته.

في Handling ، لا يكون الاتصال وثيقاً وكاملاً كما هو الحال في الاحتضان، ولكنه يحدث بشكل رئيسي من خلال اليدين. يشير هذا المصطلح إلى التلاعب بالجسم: العناية والتنظيف، الباس - الملابس، ولكن أيضاً المداعبات، والتدليك، والتدليل.

النفس الصحيحة TRUE SELF

■ يتطور في بيئة عاطفيه مليئة بالحنان والرعاية فهي تبدأ من العقلية العاطفية بالحب، وهي متساوية مع الواقع النفسي.

■ أن النفس الصحيحة تبقى مبتعدة عن المؤثرات الخارجية، فهي غير متأثرة من الأمور الخارجية والدفاع البدائي الذي يحصل من التجارب الدرامية. أن النفس الصحيحة هي المنبع للسعادة والحاجة للطاقة وهذا الشيء مختبئ لكيلا يكون معرضا للبيئة.

النفس الخاطئة أو المزيفة FALSE SELF

- وظيفتها الرئيسية هي حماية ال true self من مؤثرات الأم - البيئة السلبية. أن النفس الخاطئة عبارة عن تفاعل مع أخطاء البيئة وهذا لا يجعلها ضعيفة فأن لديها القدرة على التواصل مع البيئة.

SETTING

- **الـ setting** فإنّ وضع التحليل النفسي يتوافق مع رعاية الأم، ومع خصائص اليقين والموثوقية والدفء والحياد، ويوفّر العلاج الاحتواء والدعم الذي يحتاجه المريض، وخاصةً المريض المصاب بنقص رعاية الأم
- **(holding & handling) (الحيارة والتداول).**

العلاج

■ المعالج الجيد بما فيه الكفاية, يستطيع أن يمكّن المريض لكي يعود إلى الاضطرابات السابقة التي أدت إلى ما هو عليه اليوم. فعلى الاختصاصي أن يحضن المريض كما تحضن الأم ابنها. يجب أن يفرق الاختصاصي الاضطرابات على حسب مراحل النمو.

■ وظيفة الاختصاصي أن يمنح المريض أن يشعر بالارتياح لكي يتحدث من منطلق النفس الصحيحة.

لعبة التمايل SQUIGGLE GAME

- تم ابتكار لعبة التمايل من قبل DW اللعبة تعمل على النحو التالي:
- خذ قطعة من الورق وارسم عليها تمايلاً، واجعلها فوضوية كما تريد.
- ثم، حوّل هذا التمايل إلى صورة لشيء ما.
- لست مضطراً للاحتفاظ بنفس الأسطر، يمكنك إضافة (خربشات) بها، لكن المفتاح هو محاولة تحويلها إلى صورة لشيء ذي معنى ، على عكس التمايل غير المفهوم. يعتقد وينيكوت أن هذا التمرين كان أكثر بكثير من مجرد لعبة للأطفال، ولكنه عمل علاجي. من خلال إنشاء صور ذات مغزى من تمايل لا معنى له.
- هكذا نصل إلى عالم الطفل الخيالي الداخلي. كان يطلب من مرضاه التحدث عن الصور التي رسموها على ما يبدو عفوية وعشوائية، ويطلب منهم محاولة تفكيك المعاني الخفية التي قد تكمن تحت الصور كجزء من محاولة التوفيق بين المعالج وبين الأعمال الداخلية بذهن الطفل.

د. محمود صبحي سعيد متخصص بعلم النفس التربوي والعلاجي والصدمي



شكراً
لحسن استماعكم و تعاونكم

الى اللقاء